لفظة (غشي) وأنماط التعبير بها في النص القرآنيّ

م.م. ميثاق حسن عبد الواحد
جامعة البصرة _كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص
يهدف البحث للكشف عن القيم الدلالية التي تؤديها لفظة (غشي) عندما تنتظم النظم القرآني المبارك، من خلال استقراء المواضع القرآنية التي وردت فيها ودراسة الأبنية الوزنية التي جاءت على وفقها وتحليلها في ضوء وضعها الخطابي المقدس؛ وصولاً إلى الكشف عن دلالاتها في النص المبارك.

المقدمة
بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا ومولانا محمد بن عبدالله النبي الأمين وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعدُ: يظلُّ القرآن الكريم يستميل النفوس بجماله، ويُعجب الأنظار برونقه ونضارته، لتندفع نحوه متدبِّرة مستبصرة قاصدة وقعه السماوي المقدس.إنَّ هذه الدراسة الموسومة بـ (لفظة غشي وأنماط التعبير بها في النص القرآني) تسعى إلى الكشف عن الأبعاد الدلالية التي تتخذها لفظة الإغشاء في الخطاب القرآني المبارك، في ضوء استقراء مظانها فيه ورصد الصيغ الصرفية التي تنبني على وفقها، سواء كانت اسمية أم فعلية ومناقشتها في ضوء الاستعانة بالمعنى اللغوي المستقى من المصنَّفات المعجمية. لقد وقف الباحث عند تلك المادة القرآنية، وتتبَّعَ صورها البنائية دارساً ومتفحِّصاً ومتأمِّلاً، فخلص إلى تحديد ما عنَّ له من ملاحظ الدلالة التعبيرية الغنية بالظلال والإيحاءات، وحسبُه أنَّه عمل بإخلاص وأنَّه جلّت قدرته لا يُضيع أجر العاملين.

غشي في الدلالة المعجميَّة
تناول المعجميون لفظة (غشي) شأنها شأن ألفاظ العربية الأخرى، وعرضوا لأصلها الوضعي، وبينوا الألفاظ المأخوذة منها والمحمولة عليها، وخلاصة ما أثبتوه أنَّ التغشية والإغشاء ((التغطية، يقال: غشّيتُ الشيءَ تغشية، إذا غطَّيته، وعلى بصره وقلبه غَشو وغَشوة وغُشوة وغِشوة وغِشاوة وغُشاوة وغاشية، أي: غطاء)).(١)و ((الغاشية:

المجللة)).(٢) والإغشاء: الإغماء، ((يقال: بكى الصبيُّ حتى غُشي عليه، أي: أُغمي)).(٣) و ((غشي أصلٌ صحيحٌ يدل على تغطية شيء بشيء، يقال: غشيتُ الشيء أغشيه، والغشاء: الغطاء)).(٤) و ((الغَشاوة: ما يُغطى به الشيء، يقال: غشيَهُ غشاءً وغِشاوة، إذا غطّاه وأتاهُ إتيان ما قد غشيه. والغاشية كل ما يغطي الشيء كغاشية السَّرج ونحوه، وجمعها: غواشٍ)).(٥) ((ويقال: غشيه غشياناً، أي: أتاه وباشره. وغشيَ المرأة غشياناً: جامعها)).(٦) وغشية الحمَّى: لُمَّتها، ونزلت به غشية الموت، وغُشي عليه، وأصابه غُشي، وعلى قلبه غشاوة فلا يقبل الحق(٧). ((وغاشية القلب وغشاوته: قميصه، ويقال: استغشى ثيابه وتغشَّى بها، أي: تغطَّى بها؛ لئلا يُرى أو يُسمع، والغِشيان: إتيان الرجل المرأة، يقال: غشَّاها غشياناً، إذا جامعها، وتغشاها وتجللها، أي: علاها. وقيل للقيامة: غاشية؛ لأنها تجلل الخلق فتعمّهم)).(٨) والغشاوة: ((ما يتركب على وجه مرآة القلب من الصَّدأ)).(٩) وغشيهُ يغشاه: جاءه وقصده(١٠). ويقال: غشي الليل، إذا أظلم، وغشيه بالسيف: ضربه، وغشيته سوطاً أو سيفاً، أي: منحته إيَّاه(١١). والأصل في التغشية والإغشاء الستر والتغطية والمواراة، وهذا المعنى أعم من أن يكون في مادي أو معنوي، بل إن استعماله في ما وراء الماديات أو المعنويات أبلغ وأكثر، ومن مصاديقه استيلاء القوة الشهوية من الرجل على المرأة، واستيلاء لون البياض على الرأس، واستيلاء السوط في حال الضرب به، واستيلاء الإفزاع على الناس يوم القيامة(١٢). على أن للفظة القرآنية سعة وشمولا لا سبيل إلى الإحاطة بدلالتها بصفة كلية إلا بمقدار ما يُوفق إليه المتأمِّلون.

غشي في الدلالة القرآنية

يُلاحظ على دلالة التغشية والإغشاء في المنظور اللغوي المعجمي دورانها حول معاني التغطية والستر والمواراة، وهي المضامين الدلالية الموضوعة بإزائها في أصل دلالة الاستعمال الوضعي، ومنها تنطلق في إفادة الدلالات المجازية التي لا تبعد كثيراً عن أبعادها الحقيقية الصريحة. ولأجل فهم المدلول الواقعي لمادة غشي لابد من استقراء مواردها الاستعمالية في النص القرآني العزيز، وتتبع أنماطها فعلية كانت أم اسمية والوقوف عند ملابساتها وظروف تشكلها عندما تنتظم النظم الإعجازي المبارك. وفيما يأتي وقفة تفصيلية عند الموارد التي تشكلت فيها مادة الإغشاء.

أولاً / غشي في نمطها الفعلي

يتصرف الخطاب القرآني بلفظة غشي في نمطها الفعلي، فيأتي بها على وُفق هيآت تصريفية متنوعة، فهناك الصيغة (غشي) على زنة (فَعِلَ) وقد جاءت في موضعين

قرآنيين، الأول قوله تعالى: ((فأتبعهم فرعون بجنوده فغشِيهم من اليمِّ ما غشيهم)).(طه:٧٨) فالسياق في شأن قصة إهلاك فرعون وجنوده الطاغين، وجاءت لفظة الإغشاء دالة على العقوبة العظيمة التي حلت بهم، واتخذت من اليمِّ مسرحاً لتحققها، تجسيداً لمفهوم التغشية الحسية المادية، وكانت أداتها ما لا يُحاط بكُنهه من الموج العظيم الهائل(١٣). ولعل في إسناد الاسم الموصول المطلق الدال على السعة والشمول والإحاطة إلى فعل التغشية دلالة على هوله وعظمته، فضلاً عن أن تكرار مادة التغشية في الفعل وفي صلة مسنده يزيد المعنى قوة وتمكناً، ويُسهم في تعزيز أثره الدلالي. وجاء التشكل الثاني في قوله تعالى: ((وإذا غشيهم موجٌ كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يخحد بآياتنا إلا كل ختَّار كفور)).(لُقمان: ٣٢) فقد تشكلت صيغة ماضوية مسندة إلى الموج المشبَّه بالظلل على سبيل الفاعلية، تعبيراً عن معنى الاختبار الشديد المرعب(١٤)، فالموج هو الماء الهائج المضطرب(١٥)، وتشبيهه بالظلل للدلالة على تراكمه وشدة سواده وكثرته أكسبه قوة أدائية، جعلت صفته الاسنادية إلى فعل التغشية قيمة دلالية مقصودة تجسد المعنى من جميع أبعاده لا على سبيل الطغيان والهيجان وحسب بل تشمل معاني الاتساع والشمول والإحاطة.وهناك الصيغة (أغشى) على وزن (أفعل) المزيد بالهمزة والتي تمثلت في موضع واحد هو قوله تعالى: ((وجعلنا من بين أيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)).(يس: ٩) ويبدو أن إسناد الصيغة الحدثية إلى ضمير القدرة والعظمة على سبيل الفاعلية يدل على تغطية أبصار المنذَرين الغافلين بحُجُب غيبية عظيمة، أفقدتها وظيفتها(١٦). وربما كانت تغطية مجازية قائمة على سلب الوعي والإدراك، وهذا أنسبُ وأكثرُ انسجاماً ومضمونَ الصورة التهكميَّة الاستهزائية السابقة. وكذلك الصيغة الفعلية المضعَّفة (غشَّى) على زنة (فعَّل) فقد انتظمت في موضع واحد أيضا، هو قوله تعالى: ((والمؤتفكة أهوى فغشَّاها ما غشَّى)).(النجم: ٥٣-٥٤) فالسياق يستعرض حادثة إهلاك قوم نبي الله لوط عليه السلام، والمؤتفكة مدائنهم، وائتفاكها قلبها رأساً على عقب، و ((صرفها عن الحال التي كانت عليها)).(١٧) وقد جاءت مادة الإغشاء لإفادة مضمون ما أتبعت به تلك القرى بعد قلبها من الحجارة المنضودة التي صُبَّت عليها فغطَّتها، وطويت بذلك صفحة بشرية سيئة(١٨). إنَّ صيغة الفعل المضعف ترسم ظلال القوة والعنف في حصول الحدث العذابي، زيادة على أن تكرار مادة التغشية في الفعل وفي صلة مسنده

يسهم في تقوية المعنى وتعزيزه، الأمر الذي يجعل الآية مكمناً للإيحاءات المنسجمة ومضمون المستوى الخطابي المجسَّد.

ووردت مادة الإغشاء على زنة بناء التَّفعُّل (تغشَّى) في مورد قرآني واحد أيضا، ذلك قوله تعالى: ((هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشَّاها حملت حملاً خفيفاً فمرَّت به فلما أثقلت دعوا الله ربَّهما لئن آتيتنا صالحاً لنكوننَّ من الشاكرين)).(الأعراف: ١٨٩) فانتظام فعل التَّغشي على وفق خصائص الإسناد والتعليق والتقييد بالقيم الظرفية المجسدة يؤشر تعبيراً تأدبيَّاً تهذيبياً عن معنى ما يكون بين الرجل وزوجه من الجُماع، وربما كان لجرس فعل التَّغشي وإطلاقه دلالة توحي بظلال زائدة عن المعنى المادي، وتحكي مضامين ما يكون بين الزوجين في تلك الحال. وتمثلت أيضاً على بناء صيغة الاستفعال (استغشى) وفي موضع قرآني واحد أيضاً، هو قوله تعالى: ((وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرَّوا واستكبروا استكباراً)).(نوح: ٧) الخطاب على لسان نبي الله نوح عليه السلام، يشكو إلى ربه عناد قومه وتعنتهم وتجبرهم واستكبارهم، فجاءت لفظة الاستغشاء لتحكي بخصائص تآلفها وتضامّها اتخاذ القوم الضالين الثيابَ وسيلة للتخفِّي والتَّستُّر؛ صدَّاً عن سماع الحق وإعراضاً عن رؤية الداعي إليه(١٩)، ولعل في ذلك إشارة إلى أن مجرد رؤية نور النبوة كافٍ لزرع الإيمان وبثه في قلوب الناظرين. وجاءت أيضاً على وفق صورة المبني للمجهول في قوله تعالى: ((والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنَّما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)).(يونس: ٢٧) فالآية تحكي حال المسيئين يوم القيامة، وترسم لهم صورة سوداوية قاتمة مستوحاة من سوء سرائرهم وقبح أفعالهم، وتبدو دلالة نفسية تعتمد أداة التشبيه التقريبية في تجسيد مضمونها، وفي إسناد مادة الإغشاء إلى الوجوه على سبيل النيابة عن الفاعل وتمميزها بالقطع المظلمة بيانٌ للحالة النفسية المنهارة التي سيكونون عليها آنئذٍ. فالتعبير حسي تجسيمي ينطوي على معنى المبالغة في وصف سواد الوجوه وقبح الأعمال(٢٠). ولا شك في أن توظيف الوجوه يهدف إلى إبرازها بصورة تتضاد ووظيفتها الجمالية المتعارف عليها، لتستحيل مواضع للإخزاء والإذلال.

ثانياً / غشي في نمطها المضارعي

تنوعت مستويات الخطاب بمادة الإغشاء على وفق تنوع الصيغ المضارعية التي انتظمت في ضوئها، وقد جاءت على بناء (يغشى) على وزن (يفعل) في ثمانية

مواضع، منها قوله تعالى: ((والليل إذا يغشى)).(الليل: ١) فقد انتظمت بؤرة للمضمون المادي المقسَم به، والليل وغُشوُّه مظهرٌ من مظاهر الخلق العظيم والقدرة المطلقة، ويلحظ خلوُّ السياق من عنصر التقييد المفعولي المقتضى لفعل الإغشاء، ولعل في ذلك إشارة إلى انصراف مضمون القسم إلى صفة الليل على جهة التخصيص والتعيين، ((مع أنه بظلامه يغطي الأرض وجميع ما فيها)).(٢١) وجاء التشكل الثاني في قوله تعالى: ((والليل إذا يغشاها)).(الشمس: ٤) فالخطاب قسم بصفة الليل عندما تحيط بمصدر الضياء فتحجبُه وتغيِّبُه(٢٢)؛ ولأنَّ الشمس مصدر الضوء فإن في التعبير عن معنى حجبها بلفظ الغشو المطلق الدال على معاني الاتساع والشمول والإحاطة إيحاءً بعظمة القدرة المدبِّرة التي تقف وراء ذلك. أما التمثل الثالث فقد ورد في قوله تعالى: ((إذْ يغشى السِّدرة ما يغشى)).(النجم: ١٦) فجاء فعل الإغشاء موحياً بما كانت عليه سدرة المنتهى التي ذكرت في حادثة الإسراء والمعراج ممَّا شأنه الرفعة والسُّمو والعظمة(٢٣). ومن مواضع التشكل بالصيغة المضارعية أيضاً قوله تعالى: ((فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم)).(الدخان: ١٠-١١) الخطاب في تهديد اللاعبين المشككين وإنذارهم، وفيه جاءت مادة التغشية فعلاً مضارعياً حاكياً شمول العذاب الدخاني النازل بأولئك وإحاطته بهم من كل جانب، زيادة على إذهاله إياهم وسلبه وعيهم وإدراكهم(٢٤). وكذلك قوله تعالى: ((سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار)).(إبراهيم: ٥٠) الآية المباركة ترسم صورة المجرمين وهم في النار، حيثُ الأغلالُ في أعناقهم وأيديهم وأرجلهم.. فالنار تتصعَّد وجوه أولئك فتلفحها وتعلوها بالعذاب(٢٥). إن أسلوبية تقديم المقيد المفعولي (وجوههم) على المسند (النار) توحي بأن وظيفة الوجوه المتعارف عليها بوصفه موضع الحسن والجمال مقصودة ومقتضاة خطابيا، ولأجل ذلك خُصِّصت بمعنى الغشيان تقييدياً؛ لتستحيل مواضعَ للخزي والعار والإذلال، وأن في تعريف المسند وتوحيده وتنكير المقيد وتعدده دلالة على معاني تمكن المسند وسطوته وقوة تأثيره من جهة، وخُنوع المقيد وذله وعظيم تأثره من جهة ثانية، زيادة على ما في إطلاق فعل الغشو من معاني الإحاطة والشمول والاتساع، التي تظهر حرص الخطاب المبارك على أن يجعل للوجوه غطاءً عذابياً مثلما جعل للأبدان سرابيلَ.

وتشكل في سياق قوله تعالى: ((يُغشي الليل النهار يطلبُه حثيثاً)).(الأعراف: ٥٤) الدائر حول الاستدلال بالمظاهر الوجودية العظيمة المعجزة على وجود الفاعل المؤثر وقدرته

العظيمة، فممارسة الليل صفته الجلية في النهار ظاهرة كونية عظيمة، تعد مصداقاً من مصاديق تحقق معنى الربوبية في الذات الخالقة المقتدرة، ودليل على ألوهيتها وتفردها وأحقيتها بالعبودية(٢٦)، فضلاً عن أن في إسناد تلك المعاني العظيمة إلى الله سبحانه وتعالى بصفته الربوبية العطوف الحانية دلالة على أنها من مضامين الرحمة الإلهية السابقة، التي لا حياة من دونها. أمّا على بناء التَّفعُّل (يُغشّي) فقد تمثلت المادة في موضع قرآني واحد، هو قوله تعالى: ((إذْ يُغشّيكم النُّعاسَ أمَنَة منه ويُنزِّل عليكم من السماء ماءً ليُطهِّركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويُثبِّت به الأقدام)).(الأنفال: ١١) وهذا الخطاب موجّه إلى فئة مخصوصة من المؤمنين، يوبّخهم على ما فعلوه في غزوة تبوك من تعلق قلوبهم بالغنائم وإيثارها على مجاهدة الكافرين ومجادلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحق، فجاءت مادة التّغشّي دالة على الرحمة الإلهية التي شملتهم وأحاطت بهم، فجعلتهم في طمأنينة واستقرار ومأمن من الأخطار، فداخلتهم السَّكينة، وتملّكهم النُّعاس، فناموا في ذلك الموقف العصيب(٢٧)، ويلحظ على جرس فعل التَّغشي أنه يُحاكي معاني قدرة الفاعل وتمكُّنه في إحداث مضمون الفعل.

ووردت مادة الإغشاء صيغة مضارعية مبنية للمجهول (يُغشى) مرة واحدة في سياق قوله تعالى: ((فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت)).(الأحزاب: ١٩) فالآية الكريمة في شأن المنافقين الذين لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، يُصوِّر حالهم عند نزول الشدائد بهم، فالحالة النفسية المنهارة التي تنتاب أولئك عند نزول الأهوال ساحتَهم هي أقرب ما تكون عليه من حالة الإنسان ساعة الاحتضار، حيثُ يفقد الوعي والإدراك ويُذهَل، فلا ينشغل إلَّا بما حلَّ به، ولا يعي سواه، وتبقى عيناه معلّقتين، فكذلك هؤلاء تتعلق عيونهم بالنبي وتتزلزل؛ لُواذاً واستنجاداً واستعطافاً(٢٨)، وفي ذلك من معاني الذم والتسخير والاستهزاء ما لا يخفى.

ثالثاً / غشي في نمطها الاسمي

تناولنا فيما سبق تشكلات لفظة غشي في نمطها الفعلي وبصورتيه الماضوية والمضارعية، ولاحظنا كيف تنوعت دلالاتها تبعاً للمستويات الخطابية التي انتظمت فيها. وفي هذا المحور نتناول تشكلها في النمط الاسمي؛ للتعرف على صورها ومستوياتها الخطابية وبيان الوظائف التعبيرية التي نهضت بها، وبعد استقراء مواردها في النظم القرآني تبيَّن أنها ترد على النحو الآتي:

أ/ **مصدراً**: تشكلت مادة الإغشاء على وفق الصورة المصدرية الخالصة (غِشاوة) على

زنة (فِعالة)، في موضعين قرآنيَّين أوّلهما قوله تعالى: ((ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة ولهم عذابٌ عظيم)).(البقرة: ٧) فقد انتظمت مصدراً مجرَّداً دالاً على معنى الاشتمال(٢٩)، واحتلت رتبة المسند إليه الابتدائي المتأخر عن المسند الخبري، دالة على حجب الأبصار وإعمائها، وجعلها ممنوعة عن قبول الحق(٣٠). على أن المراد بالأبصار أعم من أن يكون مقصوراً على الجوارح المبصَر بها، فربما قُصد منها مواضع الإدراك والشعور عند البشر وعند ذلك يكون تخصيصها بمضمون الغشاوة دالاً على سلبها وجعلها منعدمة، فضلاً عن أن في تنكيرها إيحاءً بهول الحاجب المغطي وعظمته وفداحة ما يترتب عليه(٣١). وكذلك في قوله تعالى: ((وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة)).(الجاثية: ٢٣) وهذا الخطاب يستدعي النظر والتدبر والتأمل؛ لأنَّه خطابٌ لكل ذي رؤية بصرية وعقلية وقلبية، فمصدرية مادة الإغشاء واشتماليتها وانتظامها قيداً مفعولياً من فعل الجعل يدل على قصدية تخصيص تلك الحُجُب العظيمة بتلك المواضع المقصودة، فتحول بينها وبين تحقق الأثر المادي المنوط بها(٣٢)، ناهيك عمّا يوحي به التنكير من معاني تميُّزها وافتراقها عن أنواع الأغطية الأخرى المعروفة. وعلى هذا النحو يؤدي جعلُ الغشاوة على البصر وظيفته في الإبلاغ، ليكون في تناسب تام وما يوحي به الختم على القلب والسمع من معنى طبعهما بطابع الغفلة والضَّلال.

ب/ اسم فاعل: تجسَّدت مادة الغشو على بناء اسم الفاعل صيغة مفردة من بناء الثلاثي المجرد في موضعين فرآنيين: الأول قوله تعالى: ((أفأَمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون)).(يوسف: ١٠٧) فالسياق يثير التعجب والاستغراب مما عليه المشركون من الأمن والغفلة عمَّا يوشك أن يحلَّ بهم، فجاءت مادة الغشو مفصحة عمَّا سيدهمهم من العذاب الهائل المتَّصف بالإطباق والاشتمال والتجلل(٣٣). والغاشية فاعلة الغشو التي تطغى على المغشيين بها وتهولهم بأحداثها المفزعة المرعبة، ناهيك عمَّا في خصائصها على جانبي التعيين والتمييز من الإيحاء برعبها الذي يتملك الوعي فيُلبِسُه البَهت والهول(٣٤). وقد تجسَّد الموضع الآخر في قوله تعالى: ((هل أتاك حديث الغاشية)).(الغاشية: ١) فالتعبير عن يوم القيامة بصفة الغشو يعبر عن معاني الهول والرعب والفزع التي ستتجسَّد آنئذٍ، فتُحدث معنى الغشو عندما تتغشّى وجوهٌ بالخشوع والذل والتطامن، فتبقى في عمل ونَصبٍ مما هي فيه(٣٥). ولعل ما في معنى الاستفهام الذي افتتح به الخطاب من

استمالة نفس المتلقي نحو مضمون الخبر يوحي بعظم الواقع الذي سيملأ ساحة المحشر في ذلك اليوم(٣٦). وكذلك تشكلت جمعاً من صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ((لهم من جهنَّم مهاد ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين)).(الأعراف: ٤١) مساهمة في حكاية مآل المكذبين المستكبرين ومعبِّرة عن أن ما أعدَّ للمجرمين في جهنَّم شيءٌ عظيم الخطورة، يجللهم ويغمرهم من فوق رؤوسهم ويشملهم بألوان من العذاب العظيم(٣٧)، زيادة على أن إسناد معنى الغشو إلى جهة الفوق أنسب في تصوير الموقف وتجسيد مضامينه الحسيَّة من المعاني الوصفية الأخرى؛ لأنَّ الغاشي هو الذي يحيط بالشيء ويستره من كل جانب.

ج/ اسم المفعول: وقد انتظمت على بناء اسم المفعول (مغشي) في موضع قرآني واحد، هو قوله تعالى: ((فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشيِّ عليه من الموت فأولى لهم)).(محمّد: ٢٠) الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو سياق تعبيري فني ينطوي على بُعد نفسي حركي، تتكشف عنه مضامين الخوف والرعب والفزع، التي تنتاب المنافقين عندما ينزل نصٌّ سماوي بيِّنٌ في فرض الجهاد، يتضح به كذبٌ ادعاءاتهم وزيف اشتراطاتهم وبطلان أعذارهم، وجاءت مادة الإغشاء على زنة المفعول بالفعل لبيان الحالة البصرية والإدراكية التي تتملكهم آنذاك، إذ تتغير الملامح وتتخطّف الأبصار، ويتجسَّد مرض نفوس القوم مرضاً وجزعاً وحيرة واضطراباً، ترتسم على جوارح البصر فتهتزُّ وتنقلع في صورة لا تُقاربها إلّا صورة المرء ساعة الاحتضار، فيُذهَل ويُسلب وعيُه(٣٨).

الخاتمة

لقد شارف البحث على الخلاص، وفيما يأتي عرضٌ موجز بأهم ما تكشف عنه من النتائج، التي يمكن عدُّها تجسيداً للواقع الاستعمالي الذي اتسمت به مادة الغشو في النظم القرآني:

– تلتقي معاني الغُشو، والإغشاء، والتغشية، والغَشَيَان، والتَّغشّي في معنى واحد هو التغطية والسَّتر والمواراة، ومنه ينطلق كلٌّ منها فيتخذ مجالاً دلالياً معيناً بحسب ما تقتضيه ملابسات الخطاب وفحوى البناء.

– تنوعت مستويات الخطاب بلفظة الغشو تبعاً لتنوع المباني الصيغية التي أتت على وفقها في الخطاب القرآني، فتوزعت ما بين البرهنة والاستدلال، والاستعطاف والرحمة، والتهويل والتعظيم، والعتو والضلال، والمجازاة والتعذيب، والذم والتوبيخ والاستهزاء.

– وردت لفظة غشي في ستة وعشرين موضعاً قرآنياً مباركاً، ستة منها بالنمط الاسمي، وعشرون بالنمط الفعلي.

– تفنَّن الخطاب المبارك في استعمال لفظة غشي، فأوردها صيغة فعلية ماضوية على خمسة أوزان تصريفية، لكل منها صفته التركيبية المعينة، فقد جاء غَشيَ دالاً على التهويل والتفخيم في الفعل العذابي المتمثل بالتغطية المادية الحقيقية.

– وقد دلَّ أغشى على إعماء مدارك المخصوصين بالخطاب وترسيخ معاني الغفلة والضلال في نفوسهم. في حين أفاد غشَّى معاني القوة والسطوة في التجلل والطمس والتغطية. أما تغشَّى فعبَّر عن دلالة فنية أدبية تأدبية، جسدت حقيقة الخلق الأول وانطوت على أحد مضامين العلاقة الاجتماعية القائمة بين الزوجين.

– تمثل بناء تغشّى في موضع واحد مفيداً معاني التستر والتخفي والتواري، في حين جسَّد المبني للمجهول أُغشي الخصائص الوظيفية المعبرة عن الحال النفسية المنهارة التي ستتملك طائفة من المحشورين يوم القيامة، وتجسيدها علامات للخزي والذل ترتسم على محاسنهم.

– وقد جاءت مادة الإغشاء صيغة مضارعية على ثلاثة أوزان. وقد عبرت صيغة يغْشى عن معاني الستر والشمول، وأوحت بمعاني شدة وقع الفعل وقوته وهوله. أما الفعل يُغشِّي فأفاد مضامين اللطف والإمداد الإلهي إزاء المؤمنين، وذلك بجعلهم –ساعة الرعب والفزع– في طمأنينة وأمن واستقرار.

– جسَّد الفعل يُغشِي مضامين الخلق الكوني العجيب بوصفها مصداقاً لتحقق معنى الألوهية العظيمة المقتدرة والربوبية العطوف. أما الصيغة يُغشى فقد كشفت عن حقيقة نفسية انطوت على معاني الاستهزاء والسخرية من شأن المنافقين وما يتلبَّسون به عند الشدائد.

– أما على بناء الصيغة الاسمية فقد جاءت مادة الإغشاء على أربعة أنماط: جسد نمط الصيغة المصدرية بُعداً للجزاء الإلهي المتمثل بطبع شعور الكافرين بطابع الغفلة والضلال وإلباس أبصارهم حُجُباً وأغطية تُعيقها وتقيدها وتحول دون اهتدائهم وصلاحهم.

– في حين عبرت صيغة اسم الفاعل الإفرادية عن معاني هول الغاشي وشدته عندما يتلبس بمضمون ما يحدثه ويتسم به على نحو الثبات والدوام. أما الصيغة الجمعية فقد أسهمت في رسم أبعاد الظرف المكاني المعُدّ للمجرمين، فدلّت على معنى ما يعلو فيطغى، ويُجلل فيُغطي، على جهة الاتساع والشمول والإحاطة.

– وأخيراً انتظمت مادة الغشو المفعولية في موضع واحد، فأفادت بُعداً تعبيرياً فنيَّاً شبَّهت من خلاله حال أهل النفاق لحظةَ إفحامهم بالحكم الساطع بحال مَن يدهمه الموت، فيسلبه لُبَّه ويُذهله.

هوامش البحث

١/ معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (غشو): ٤٢٩/٤ .

٢/ مجاز القرآن، أبو عُبيدة معمر بن المثنّى: ٣١٩/١ ، العمدة في غريب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي: ١٦٤ .

٣/ إصلاح المنطق، ابنُ السِّكيت: ٤١٥ .

٤/ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (الغين والشين والألف): ٤٢٥/٤ .

٥/ مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (غشي): ٦٠٧ .

٦/ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (غشي): ٣/٦ .

٧/ يُنظر: أساس البلاغة، الزمخشري (غشي): ٧٠٣/١ .

٨/ لسان العرب، ابن منظور (غشا): ٣٢٦١/١-٣٢٦٢ .

٩/ كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني: ٢٦٨ .

١٠/ ينظر: مجمع البحرين، فخرالدين الطريحي (غشا): ٨٨٤/١ .

١١/ يُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (غشي، غشو): ١٦٤/٣٩-١٦٩ ، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية المصري (غشي): ٦٥٢-٦٥٣ .

١٢/ ينظر: تحقيق كلمات القرآن، المحقق المصطفوي (غشي): ٢٧٤/٧ .

١٣/ ينظر: الكشاف للزمخشري: ٧٩/٣ ، تفسير أبي السعود: ٣١٧/٣ .

١٤/ ينظر: مجاز القرآن: ١٢٩/٢ ، الكشاف: ٥١٠/٣ .

١٥/ ينظر: معجم مقاييس اللغة (موج): ٢٨٤/٥ .

١٦/ ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣٧٣/٢ ، الكشاف: ٧/٤-٨ .

١٧/ مفردات ألفاظ القرآن (أفك): ٧٩ .

١٨/ ينظر: الكشاف: ٤٢٩/٤ ، تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي: ١٦٧/٨ .

١٩/ ينظر: تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ٢٩/٢٠ .

٢٠/ ينظر: التصوير المجازي أنماطه ودلالاته في مشاهد القيامة في القرآن، د. إياد الحمداني: ٧٣ .

٢١/ البحر المحيط: ٤٧٧/٨ .

٢٢/ ينظر: الكشاف: ٧٦٢/٤ .

٢٣/ ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن للطَّبرسي: ٣٤٥/٧ .

٢٤/ ينظر: البحر المحيط: ٣٥/٨ .

٢٥/ ينظر: تفسير أبي السعود: ٦١/٥ .

٢٦/ ينظر: البحر المحيط: ٣١١/٤ .

٢٧/ ينظر: الكشاف: ١٩٣/٢ .

٢٨/ ينظر: البحر المحيط: ٢١٤/٧ .

٢٩/ ينظر: الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري: ٧٣ .

٣٠/ ينظر: مجاز القرآن: ٣١/١ .
٣١/ ينظر: الكشاف: ١٦٥/١ ، البحر المحيط: ١٧٢/١ .
٣٢/ ينظر: تفسير الميزان: ٢٨/٧ .
٣٣/ ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرَّضي: ١٧٤ .
٣٤/ ينظر: الكشاف: ٢٤٦/٢ .
٣٥/ ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن، د. محمد محمد داود: ٤٠٩ .
٣٦/ ينظر: البحر المحيط: ٤٥٧/٨ .
٣٧/ ينظر: تفسير الميزان: ١١٦/٨ .
٣٨/ ينظر: الكشاف: ٣٢٧/٤ .

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم
- أساس البلاغة، محمود الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السُّود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١.
- إصلاح المنطق، ابن السّكيت(ت٢٤٤هـ)، تحقيق: أحمد محمود شاكر وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف-القاهرة، ط٤.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي(ت١٢٠٥هـ)، دار الحياة-بيروت، ط١، ١٣٠٦هـ.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلامة المصطفوي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
- التصوير المجازي أنماطه ودلالاته في مشاهد القيامة في القرآن، د. إياد عبدالودود الحمداني، دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد، ط١، ٢٠٠٤م.
- التعريفات، الشريف الجرجاني(ت٨١٦هـ)، مكتبة لبنان- بيروت، ط١، ١٩٥٨م.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي(ت٩٥١هـ)، تحقيق: محمد صبحي حسن حلاق، دار الفكر- بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.
- تفسير البحر المحيط، أبو حيَّان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، دار الفكر- بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- تلخيصالبيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالغني حسن، دار الأضواء- بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- العمدة في غريب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي(ت٤٣٧هـ)، تحقيق: يوسف عبدالرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم أنيس، دار الرشيد- بغداد، ط١، ١٩٨٢م.

- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث- بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- لسان العرب، ابن منظور(ت٧١١هـ)، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف- القاهرة.
- مجاز القرآن، أبو عُبيدة معمر بن المثنى(ت٢١٠هـ)، تحقيق: محمود فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي- القاهرة.
- مجمع البحرين، فخرالدين الطريحي(ت١٠٨٥هـ)، تحقيق: أحمد الحسيني، دار الكتب العلمية- النجف الأشرف، ط١، ١٣٨٦هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، العلامة الطبرسي(ت٥٤٨هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة(ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- معاني القرآن، الفراء(ت٢٠٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجَّار، دار الكتب- القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، د. محمد محمد داود، دار غريب- القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس(ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية المصري، القاهرة، مكتبة الشروق، ط٤، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني(ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت، ط٤، ١٤٢٥هـ.
- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية- قم المقدسة، ط٣، ١٣٩٧هـ.